بين السيرة والقصة

بقلم الكاتب الفرنسي : أندريه موروا
ترجمة : صديق شيبوب

تناول الكاتب الفرنسي « اندريه موروا » موضوع الموازنة بين السيرة والقصة وبيان وجوه الشبه والاختلاف بينهما في المحاضرة الاخيرة من ست محاضرات ألقاها في شهر مايو سنة ١٩٢٨ بكلية « ترينيتي كوليج » بكامبريدج ثم جمعها في كتاب عنوانه «ظواهر السيرة» .

واندريه موروا اشتهر بكتابة السير والتراجم ، وله في هذا الباب العديد من المؤلفات المعروفة ، كما كتب عددا من القصص الطويلة والقصيرة .

ولا شك في ان ممارسة اندريه موروا للفنين وامتلاكه لناصيتهما يضفي على الموازنة التي عقدها أهمية خاصة . وهذه ترجمتها .

***

في المحاضرات السابقة كنا نطارد شبحا يهرب أمامنا ، وهو معرفة حقيقة الانسان . وتساءلنا هل يستطيع كاتب السيرة ادراك هذا الشبه والوصول اليه . وكان رأينا انه لن يتمكن من ذلك ، لأننا في كل مرة نعتقد اننا تمكنا من وضع يدنا على كتف الشبح الشفافة كان الشبح ينقسم الى شطرين ويفلت كل واحد منهما هاربا في شعاب متفرقة واتجاهات مضادة .

فمن ناحية أعمال الشخص وحياته الظاهرة فاننا نعرف انه سافر ، وانه التقى بهذه السيدة ، وانه ألقى ذلك الخطاب . لكن في الناحية الاخرى فان حياته الداخلية تفلت منا كلما اعتقدنا اننا أدركناها . انها تظهر أحيانا ظهورا ماديا في شكل مذكرات يومية ، أو رسائل ، ولكن هذه الوثائق لا تلبث ان تثير شبهاتنا لاننا نشعر ان وراء سطورها ، وفي الاعماق ، توجد أشياء أخرى كان يجب ان نعرفها ، هذه الاشياء الاخرى التي نشعر بها في أنفسنا مثل تيار الافكار المستمر في تدفقه ، والصور العابرة التي تجول في المخيلة ، والنوايا والحسرات ... كيف نستطيع معرفة هذا جميعه عن رجل مات ومضى عن هذه الدنيا وأصبح البحث عن طوايا نفسه في صبر وأناة غير ذي جدوى .

يضاف الى ما تقدم انه عندما يساعد الحظ وتكشف الصدفة عن أعمال بطلنا ونواياه معا نجد انهما متضادان لانه في حين كنا نود ان نستوفي الحكم على العمل تظهر سلامة الطوية فتنتزع كل سلاح من أيدينا ، ونستنتج من هذا انه لم اطلعنا

على الاعمال فقط كان من العسير علينا تفسيرها · وأنتم تعلمون قصة «روسيتى» الذى أحس عند وفاة زوجته بندم شديد على سوء معاملته لها ، فأراد أن يعاقب نفسه ودفن معها فى القبر كل الأشعار التى نظمها منذ زواجهما والتى كانت فى نظره رمز جنايته · وكان «روسينى» يخشى ان يكون قد ضحى بشخص حى فى سبيل فنه فأراد أن يعاقب نفسه بازالة ذلك العمل الفنى · وتعلمون أيضا أن « روسيتى » بعد مرور شهور على ذلك لم يتمالك ان فتح المقبرة واسترد أشعاره · وهى قصة مثيرة حقا · والقاص يستطيع ان يجعل منها موضوع قصة مؤثرة وان يدلنا على الأحاسيس التى اضطربت بها نفس «روسيتى» فى تلك الفترة من حياته وأدت الى تنفيذ ماعتزمه· ولكن ماذا يفعل كاتب السيرة ؟ ان أشياء كثيرة تفوته · كيف كان يفكر روسيتى ، وما هى مشاعره عندما قام بعمله الاول (دفن المخطوط) وماذا كانت أحاسيسه عندما نفذ عزمه الاخير الرهيب (فتح القبر) · اننا لا نعرف شيئا من هذا ولن نعرفه ·

يساور القلق نفس كاتب السيرة اذا شاء ان يتخيل ما اذا كانت تتضمنه وثيقة مفقودة · ومن الامثلة على ذلك اننا نعرف من شهادات بعض المعاصرين ان الشاعر شيلى عندما هجر زوجته «هاريت» وهرب مع «ميرى جودوين» كان يتهم زوجته بالخيانة، وهو عذر يبرر تصرفه · ولكنه لو لم توجد الوثائق التى دلت على ذلك فيما بعد لظهر عمل شيلى قاسيا لا مبرر له ·

ففى السيرة لا يعيش الأشخاص الا بقدر ما رآهم غيرهم يحيون ، وما دونوا من أعمالهم · وكانت الفلسفة المثالية القديمة تقول : « المشاهدة دليل على الوجود » ، فلا وجود لبطل السيرة الا بالرسوم التى وضعها له الذين عرفوه أو التى وضعها لنفسه · أما الانسان الحقيقى فلن نصل الى جميع ظواهره ، فى حين أن هذا الانسان قد وجد فعلا ولكن كيف نعثر عليه ، وأى صياد ماهر يستطيع أن يطارد الشبحين فى وقت واحد · هل هو كاتب السيرة ؟ ان الجواب بالنفى أقرب الى الصواب ، ولعله القاص ·

يستطيع القاص أن يتخذ موقفا يمكنه من أن يتمثل وجهتى النظر فى وقت واحد ·· ونضرب على ذلك مثلا بجندى ظل عند الهجوم مختبئا فى حفرة ولم يشترك مع زملائه الا بعد أن توقفت مدفعية العدو عن اطلاق قذائفها لانتهاء الهجوم · فلو اكتشف أمر هذا الجندى أحد الضباط لاعتبره جبانا ، ولو عرف كاتب لسيرة ذلك الجندى الحادث لوصفه بأنه كانت تنقصه الشجاعة · ولكن هذا الجندى فى نظر نفسه لم يكن جبانا ولا خائر العزيمة ولعله كان يود أن يكون شجاعا ولكن جسمه لم يطاوعه واضطره أن يبقى فى مكانه · ان القاص وحده هو الذى يستطيع أن يعرف ذلك ، وأن يعرف فى الوقت نفسه حكم الضابط على الجندى ، وأن يعبر بلسان الاثنين معا · والحق أننا لا نعرف الحقيقة كاملة عن حياة الناس الا اذا وقفنا على أقوال الشاهد ووجهة نظر الانسان نفسه ، أو كما يقول « رامون فرنانديز » الا اذا « وازنا بين الشهادتين والأخطاء التى ارتكبها الشاهد والتى ارتكبها الانسان ، لأن هذا الأخير قد تخونه مشاعره فى أكثر الأحيان ، والشاهد قد تخدعه مظاهر الأعمال » · فالانسان صاحب الفعل يقول دائما : « لقد تصرف تصرفا حسنا » ويتمثل بقول شاعركم :

« حقا لقد تصرف على أحسن وجه

« لماذا لا يفعل ذلك ؟

« ولكن هل فعل ذلك ؟ هذه هى الشهادة

« ولا أريد أن أعرف غير هذا » ·

يستطيع القاص أن يعرض الموضوع من مختلف وجهات النظر فيطلعنا على حكم صاحب الفعل على فعله ، وكذلك رأى الآخرين فيه · وهناك وجهة نظر ثالثة وصفها « فرناندیز » بأنها « تتألف من الرأيين السابقين وتعتبر أساسا لعملية الخلق ··· لننظر عن كثب فنشاهد أنه لا وجود لاحدى شخصيات القصة الا بعد التوفيق بين حياتها الباطنية وحياتها الظاهرة للعيان لأن احداهما تؤثر فى الأخرى ، أو أنهما وجدتا معا وفاقا لما يراه القاص » ·

ويظهر ضعف كاتب السيرة بالنسبة للقاص انه لا يستطيع تأليف الحياتين الباطنية والظاهرية معا · فكاتب السيرة يرى «بيل» (أحد رؤساء الوزارات البريطانية) جالسا على مقعد أمام خصومه يوجهون اليه حملات شديدة ، لعل فى بعضها تحاملا كبيرا ، وقد حنى رأسه وعلت وجهه مسحة كآبة · فيتساءل الكاتب بماذا يفكر هذا الرجل ؟ ··· انه لا يدرى من أمره شيئا ··· على أنه توجد فى بعض الأحيان وقائع مادية ، ولعلها تتوفر لكاتب السيرة أكثر مما تتوفر للقاص · ولكن هذه الوقائع ليست كل شىء ·

انظروا الى المؤرخ الذى يدرس عصر ما قبل التاريخ ، ان لديه وقائع ومادة ضخمة · انه يجد فى جوف الأرض بلطة مصنوعة من الحجر المصقول وعصيا صغيرة فى أشكال مختلفة ، ويرى على جدران المغارة صورا مرسومة للابقار الوحشية · ولكن وفرة هذه المخلفات المعروضة فى المتاحف تثير السأم وتبعث على الملل ، فى حين لاتفيدنا شيئا عن الانسان الأول · ومن الصعب ـ كما يقول شسترتون ـ ان نتخيل انسانا قضى حياته فى قلع الأحجار وقطعها دون أن تكون هذه الحياة نسيجا من الرغبات والشهوات والمخاوف · و « كبلينج » عندما يصور حياة القبائل فى عصر ما قبل التاريخ يطلعنا على أشياء عديدة لا وجود لها فى المتاحف ·

وكذلك يستطيع كاتب السيرة أن يكون فى حوزته مائة وخمسون رسالة كتبها أحد الوزراء ، وقد يتعاظم هذا العدد حتى يبلغ الألف وخمسمائة ، وقد يكون من الخير أن تنشر هذه الرسائل لأنها تعتبر وثائق هامة ، ولكنك لن تخرج من هذا المنجم الزاخر بالمعلومات صورة حية لصاحبها لأنه يجب أن يضفى على هذه الوثائق الحياة والوجود ، لا أن نكتفى بأن نعيش فيها · ويقول الفيلسوف الفرنسى «الان» ان التاريخ فارغ لا يحوى شيئا لانه مضطر الى تصديق الشهوات التى يعترف بها أصحابها ، وهكذا يتحرك فى نظام تجريدى وتفوقه الحياة الواقعية · فالتاريخ يجمع مختلف أنواع البلطات ، ولكنه اذا أعوزته هذه البلطات ولم يعثر عليها قال انه لا وجود لها ، مما لم يقم عليه دليل ·

وقد بين « ا·م·فورستر » فى المحاضرات التى ألقاها عليكم فى السنة الماضيه الفرق بين شخصية القصة وشخصية المترجم له فقال :

« اذا كانت احدى شخصيات القصة تطابق تمام المطابقة الملكة فيكتوريا ، فانها حينئذ الملكة فكتوريا ، والقصة أو الجزء من القصة الخاص بوصفها يتحول الى تاريخ · والتاريخ يقوم على الأسانيد · أما القصة فتستعين بالأسانيد على قدر مزاج القاص· وهذا القدر المجهول من الاستعانة يعدل تلك الأسانيد أو يحولها عن أصلها تماما ·

فالمؤرخ يعالج أفعال الرجال وأخلاقهم بقدر ما يستطيع استنتاجه من تلك الافعال ، ويتناول الطباع كما يتناولها القاص ولكنه لا يستطيع معرفة وجودها الا عند ظهورها ، ولولا ان الملكة فيكتوريا لم تقل : «لم نقض وقتا طيبا» لما عرف من حولها على المائدة ان الحفل كان فى نظرها مدعاة ملل وسأم · وكان باستطاعتها ان تقطب

حاجبيها ليستنتج من حولها شعورها.وكذلك النظرات والاشارات تعتبر من الاسانيد التاريخية . ولكن هب انها ظلت هادئة لا تعبر عن رأيها بأى بادرة فمن كان فى امكانه معرفته ؟ فالحياة الخفية تظل خفية كما تدل عليها صفتها ، ولا يزول خفاؤها الا اذا عبر عنها بعلامات ظاهرة فتتحول عندئذ الى فعل . ووظيفة القاص ان يكشف عن الحياة الخفية من منابعها ، وان يقول عن الملكة فيكتوريا أكثر ما يمكن معرفته . وهو اذا فعل صور لنا شخصيته ، ولكنها ليست شخصية الملكة فيكتوريا المعروفة فى التاريخ » .

وهل أستطيع أن أضيف كلمة الى ما تقدم وهى انها قد لا تكون الملكة فيكتوريا المعروفة فى التاريخ ولكنها أقرب شبها بالملكة فيكتوريا من شخصيتها المعروفة فى التاريخ .

يقول «روز» انه «لكى نكون فكرة أصح عن عهد الثورة الفرنسية ونابوليون، وعن خطورة هذا العهد يجب ان ننصرف عن المؤرخين الى القاصين ، وان نقرأ قصة «الحرب والسلام» لتولستوى و «الأسر» لهاردى وهذا قول قريب من الحقيقة . وأقول «قريب» لأن تولستوى لم يفهم حقيقة عظمة نابوليون وانسانيته ، ولكنه عرف كيف يجعل من اسكندر ونابوليون وكوتزوف شخصيات حية ، وقد تم له ذلك لان تولستوى كان واسع الخيال صادق الرؤى ، وكان يعرف تصرفات أبطال القصة من رجال التاريخ ، ويعرف التعبيرات التى تظهر على وجوههم ، والاشارات والحركات التى يبدونها ، وقد تكون هذه الاشارات وتلك التعبيرات حقيقية تاريخية ، ولكننا قلما نستطيع معرفتها من كتب التاريخ . وأى مؤرخ يحق له ان يكتب كما كتب تولستوى واصفا زيارة نابوليون للجيش الروسى :

« قال بونابارت الصغير بصوت واضح النبرات ، وهو يحدق النظر من تحت الى فوق فى عينى القيصر .

ـ يا صاحب الجلالة أستأذنكم بأن أمنح أشجع جنودكم وسام اللجيون دونور .

« وكان القيصر يصغى اليه باهتمام ويبتسم ويشير برأسه موافقا .

« وأضاف نابوليون بصوت هادىء فى حين استدار بنظره الى الجنود الروس المصطفين أمامه لتأدية التحية العسكرية .

ـ الى الذى تفوق ببسالته فى هذه الحرب .

« وقال اسكندر وهو يتقدم نحو الامير كوزلوفسكى قائد الكتيبة :

ـ أستأذن جلالتكم بأن أسأل رأى الكولونيل .

« وانتزع نابوليون بصعوبة قفازه من يده الصغيرة البيضاء فتمزق ورمى به فتقدم أحد ياوريه والتقطه . »

الى أن قال :

« وأدار نابوليون ظهره الى الوراء استدارة خفيفة لا تكاد تلحظ ، ومد يده الصغيرة الكنيزة كأنه يحاول ان يتناول شيئا . وفهم رجال حاشيته رغبته وتحركوا وتشاوروا وشرعوا يناول أحدهم الآخر شيئا صغيرا . وأسرع الغلام الذى رآه نقولا عند بوريس فحياه باحترام ووضع فى هذه اليد الممدودة صليبا يتدلى من رباط أحمر

فتناوله نابوليون دون ان يلقى عليه نظرة ، ثم اقترب من لازاريف الذى كان يحرص على ان ينظر بعينيه الواسعتين الى امبراطوره • وتطلع نابوليون الى القيصر كأنه يريد ان يشير الى انه يفعل ما سيفعله ارضاء له • ووضع نابوليون يده التى تحمل الصليب على صدر الجندى لمسة منه تكفى لكى تجعل هذا البطل سعيدا •••»

ليس باستطاعة كاتب السيرة ان يقدم هذه الصورة الحية للامبراطور • وليس هناك أى سند أو وثيقة تتيح له ان يصفه وهو يمد يده الصغيرة الكنيزة ، وهو يتطلع الى القيصر فى تلك اللحظة ، الا اذا وجد من شاهد هذا الموقف وكتبه واصفا الاشارات والحركات • ولكن أحدا لم يلتفت الى تدوين مثل هذه الملاحظات فى لحظات التاريخ الخطيرة •

تعتبر هذه الملاحظات وأمثالها غير مشجعة لكاتب السيرة ، فهل يترتب على ذلك أن يعترف بفوز القاص عليه ، أم ان عليه فى بعض المواقف أن ينتفع بتجارب القاص ويحاول استعمال أساليبه الفنية ؟ ••• وهل يتميز كاتب السيرة على القاص فى بعض المجالات ؟ هذه أسئلة أود أن أبحثها معكم بصفتى من كتاب التراجم والسير على ضوء ما ذكره القاص «فورستر» فى هذا الصدد •

تحدث فورستر عن بناء القصة وعن الشكل الذى يجعل من القصة عملا فنيا قريبا الى الاذهان •

ونجد من هذه الناحية ان موقف كاتب التراجم أصعب من موقف القاص الا فى بعض الحالات النادرة ، أى عندما يكتب سيرة رجل كانت حياته واضحة المعالم جلية • فهو فى هذه الحالة يجمع أكداسا لا شكل لها مؤلفة من قطع متناثرة موزعة فى حوادث متفرقة • ولكنه يجب أن نصف الصحارى التى تفصل بينها • وفى حياة كل انسان فترات طويلة فارغة تتخلل الفترات النابضة بالحوادث • وكان «بلزاك» لا يخشى الصحارى فى قصصه • ولكن كاتب السيرة لن يجد حياة رجل تتجه الى ناحية واحدة، وتسيطر عليها شهوة واحدة ، كما هو الحال فى بعض قصص بلزاك •

ولذلك يكابد كاتب التراجم صعوبات أشق مما يعانيه القاص فى التأليف • ولكن لديه ما يعوضه عن ذلك • فهو يتناول من الواقع أشكالا معدة من قبل ، وليس عليه الا ان يستخدمها • وهذا مصدر قوة للفنان ، ومما يشحذ عزيمته • والفنان عادة يعانى مشقات قاسية فى ذلك النضال الذى يقوم بين المادة التى تقاوم والعقل الذى يرغب فى انتاج الروائع • كان ميكيلانجلو وغيره من كبار النحاتين فى عهد البعث يتلقون من الامراء كتلا من الرخام مختلفة الاشكال ، ويتلقون معها رغبات أولئك الامراء • وكثيرا ما خرج من تلك الاشكال الغريبة النصب الرائعة فى أوضاع خلابة لان المقاومة التى أبدتها كتل الرخام شحذت همة أولئك الفنانين فأبدعوا فى الخلق•ولعل أجمل الصور تولدت عن الصعوبات التى يتلقاها الشاعر فى نظم القصيد الاتباعى • وقد كان من سوء حظ بعض القصص ان مؤلفيها كتبوها فى حرية تامة ، وأرادوا ان يسووا «الأشخاص وفاقا لرغباتهم فجعلوا منها مخلوقات مبهمة مجردة من الحياة ، وجدت للتدليل على فكرة معينة أو لتأخذ مكانها فى بناء هندسى رسمت خطوطه من قبل • ومن هذا النوع قصة «تاييس» لأناطول فرانس ، وهى مثل يضرب للقصة التى تعالج الشئون العقلية بخطوط مرسومة بمهارة •

وتستطيعون ان تلاحظوا اذا درستم تاريخ القصة فى بريطانيا وغيرها ان أحسن

القاصين كانوا يفرضون على أنفسهم البحث عن أشخاصهم فى الحياة الواقعية والوثائق كما يفعل كاتب التراجم تماما · فمريديث استمد الكثير من شخصيات قصصه من الواقع ، وتولستوى استعان بتاريخ أسرته فى كتابة قصة « الحرب والسلام » ، وأندريه جيد قال فى «مذكرات المزيفين» انه يفضل الاستعانة بخبر من الاخبار المتنوعة على أن يتبع الموضوع·واعتقد أن القصة المستمدة من بعض الحوادث الجارية بعد ان حولها القاص الى عمل فنى تأتى أقرب الى الواقع من القصة المبتدعة · وفى استطاعة القاص ان يحذف ما يشاء حذفه من الحوادث التى يعتمدها واستبعاد مايلائم موضوعه ولكن كاتب التراجم مضطر إلى الخضوع للواقع بحذافيره ، وان يعنى بالعرض والتاليف ، والا انتفى عنه لقب الفنان · ولعله يستطيع ذلك بواسطة تسليط الاضواء كما يفعل الرسام ، أو بواسطة الوزن كما يفعل الشاعر ·

ولننتقل الآن الى ما نسميه بالحكايات · ان خير ما يوصف به القاص انه يضطر المطالع الى انتظار البقية بشغف وتطلع · ان شهرزاد لم تنج من الموت الا لان زوجها المخيف كان يرغب فى معرفة الفصل التالى · فهل كانت شهر زاد تنجو لو انها كانت تكتب السير · وهل تؤلف السير حكاية متصلة الاجزاء مثيرة للاهتمام كالقصة ؟ هذه حكاية «ديزرايلى» ، انها شديدة الشبه بحكايات ألف ليلة وليلة ، وهى قصة لان الثقة بالنفس والشجاعة تنتصران فى النهاية · ولا تنقصها الجنية الطيبة · كانت الملكة فيكتوريا هذه الجنية ، بل انها شبيهة بقصة « الجميلة فى الغابة النائمة » مليئة بعرائس الجن ، وكن «آن ميرى» و «ليدى دورونى نيفيل» و «ليدى شستر فيلد» ··· أجل ، اعتقد ان شهر زاد كانت تستطيع ان تنجو من الموت بواسطة سيرة ديزرايلى ·

وكانت شهر زاد لتنجو أيضا من الموت بسيرة «ميريديث» ان حياته مثيرة كالقصص ومبنية بناء قصصيا · فالطفولة تمر فى دكان خياط ، والفشل فى الزواج الاول والحب الرومنسى الطاهر للفتاة «جانيت دوف جوردون» ، ونجاح الزواج الثانى وأخيرا صفاء الحياة ·

على ان حياة شخصيات أخرى تظل باهتة ، وتمر بغير مفاجآت ، ولا تستطيع ان تستأثر باهتمام القارىء · وفى حياة شخصيات غيرها نجد حوادث مثيرة ولكنها قليلة ومتشابهة بحيث لا تصلح لقصة متناسقة · هذه شخصية السيدة «سيد ونز»، نحكم لأول وهلة ان سيرتها مثيرة لاننا نجد فيها بعض مشاهد خارجة عن المألوف وجديرة بالوصف والتصوير · وكانت السيدة ذات نفس جميلة وطيبة · ولكن جميع السير التى كتبت لها جاءت فاترة غائمة لان حياة هذه الممثلة دارت على نمط واحد·

ولذلك يجب ان نحاذر من كتابة السير المملة · ولكن من المقرر ان هناك قصصا مملة أيضا ، وانه وجد قاصون قاموا بكتابتها ·

وننتقل الى الحديث عن الاشخاص · قال «فورستر» ان هناك نوعين من الناس يجب ان نفرق بينهما وهما : الانسان الحقيقى والانسان الخيالى · والانسان الخيالى أصعب تصويرا من الحقيقى · ومن خصائصه انه يولد ، وانه يلحقه الموت · وهو لا يحتاج الا لقليل من الغذاء والنوم ، ويهتم طويلا وبغير ملل بالعلاقات بين الناس· والانسان الخيالى لا يفكر الا فى الحب ، فى حين ان الانسان الحقيقى يصرف اهتمامه بنوع خاص الى غذائه وعمله ولا يهتم بالحب الا فى ساعة أو ساعتين من يومه اذا وجد الى ذلك سبيلا ·

على ان هناك نوعا ثالثا من الناس وهو انسان السيرة ، ويختلف عن الاثنين

السابقين بأنه أكثر منهما عملا واهتماما بشئون الحياة · فربما قضى الانسان أياما طوالا متكاسلا أو جادا نشيطا، وهو يلعب الجولف ويزجى الوقت فى محادثة أصدقائه، أما انسان السيرة فانه يعمل دائما يكتب الرسائل الى أصدقائه ويحاول أن يتولى مقاليد الحكم ، أو يغازل النساء ، أو يقطع صلته بهن · انه مخلوق ذو نشاط عظيم ·

وتختلف طريقة انسان السيرة فى التعبير عن الانسان الخيالى وان كان يشبهه من نواح أخرى · فالانسان الخيالى يتكلم كثيرا ، أو يفكر فى شكل حوار داخلى بينه وبين نفسه · ولكننا نستطيع سماعه بفعل القاص الذى يقوم بعمل الخالق المطلع على خفايا القلوب · اما انسان السيرة فيتحدث قليلا ولا يفكر أبدا عندما يخلو الى نفسه ، ويكتب رسائل عديدة ، وكثيرا ما يدون مذكرات · وهو جدير باللوم اذا لم يفعل هذا أو ذاك ، بل يعاقب عليه لانه يصبح كأنه لم يوجد ·

صحيح ان الانسان الحقيقى يكتب أيضا الرسائل ، ولكن رسائله ليست على جانب كبير من الاهمية · وفى أغلب الاحيان لا يعنى بها عناية تذكر ، ولا يؤمن بما تحويه · اما انسان السيرة فانه اذا كتب رسالة فكر كثيرا فيما يكتب ، أو على الاقل هذا ما يزعمه جميع الذين يكتبون عنه ·

وتختلف معاملة الناس لانسان السيرة عن معاملتهم للانسان الحقيقى · ان انسان السيرة يعامل بقسوة أكثر من زميله · فالانسان الحقيقى يستطيع ان يناقض نفسه ، وان يحب أكثر من امرأة فى وقت واحد ، وان يبدأ حياته فوضويا ثم ينتهى محافظا ، أو عكس ذلك · والناس يغفرون له هذه الاعمال لانهم لا يلقون على حياته نظرة شاملة · ويشهدون تطوره ببطء شديد · اما حياة انسان السيرة فانها مضمومة فى ثلاثمائة صفحة تنظر فيها نظرة الناقد الفاحص ، ونصدر عليها أحكاما قاسية اذا وجدنا صاحبها يناقض نفسه · وهكذا نشتد فى الحكم على شاتوبريان ونصفه بأنه متقلب غادر لانه كان يكتب ثلاث رسائل غرام الى ثلاث نساء مختلفات فى يوم واحد ·

على انه يجب ان نشير الى ان عهد الرسائل والمذكرات أخذ بالزوال لان الحياة المضطربة التى نعيشها ووسائل الاتصال السريعة قضت على تلك الأوراق التى تعتبر لحم انسان السيرة ودمه · فالاتصالات الغرامية تقضى اليوم بالتليفون · ولو وجد «بايرون» و «كارولين لامب» فى عصرنا الحديث لما بقى أثر لخصامهما · ولا يعنى بالكتابة الا رجال الدولة لانهم يحرصون على تحديد المسئوليات · ولكنهم يكتبون على الآلة الكاتبة · وهكذا نجد كاتب سيرة الرئيس الامريكى ويلسون يعمد لتأييد أقواله الى نشر صور لتقارير مكتوبة على الآلة الكاتبة · حقا ان حياة انسان السيرة أصبحت عرضة للزوال ·

على اننا اذا أولينا انسان السيرة العناية اللازمة استطاع ان يعيش · انه شبيه بتلك النباتات السريعة العطب التى تحتاج الى عناية كبيرة ولكنها تعوضنا عن هذه العناية بأوراقها الفارعة وزهورها الجميلة ··· وهكذا اذا تناول حياة انسان السيرة طبيب ماهر استطاع بواسطة علاج ملائم أن يبعث فيه تلك الحياة الداخلية التى تعد من خصائص الانسان الخيالى ، ولكن دون اضرار بالحقيقة ·

ونتساءل فى الختام هل نحاول ان نكتب كتابا بعنوان « بلوطرخوس أو مستقبل السيرة » ·

وفى رأيى أن المستقبل لن يختلف عن الحاضر لانه لا رقى ولا تقدم فى الأدب • فليس تنيسون أعظم من هوميروس ، ولا بروست أعظم من مونتينى ، أو ستراشى من بوسويل • انهم يختلفون فى الخصائص الادبية فقط • والادب يسير سيرا متساويا أكثر مما يتبع خطا متصلا • وسنواجه من جديد عهود استقرار دينى واجتماعى يكتب فيها قليل من السير التى تكشف عن الحياة الداخلية ، وكثير من الثناء • ونلقى بعد ذلك عهودا يسودها الشك واليأس فتظهر فيها السير من جديد بشكل نطمئن اليه•

وأيا كان الشكل الذى تتخذه السيرة فى المستقبل فانها تظل من أنواع الادب الصعبة المراس ، لأننا نطالبها بتدفق العلم ، وسحر الفن • واحساس القصة للواقعى وأكاذيب التاريخ الملفقة ببراعة • ويحتاج التوفيق بين هذا الخليط العجيب الى كثير من الحذر واللباقة • وقد قال كارليل ان السيرة التى يحسن المؤلف كتابتها نادرة كالحياة التى يحسن صاحبها استعمالها • وقد دل كارليل فى قوله انه ناقد متفائل قدر ما هو رجل أخلاق متشائم • ولكن أيا كانت الصعوبات التى يلقاها كاتب السيرة فان هذا الفن جدير بأن نخصه باهتمامنا وأحاسيسنا • فعبادة الابطال قديمة وجدت مع الانسان ، وهذه العبادة تقدم للناس أمثلة رفيعة لكنها ليست مما لا يستطاع الوصول اليها ، وأمثلة عجيبة ولكنها ليست مما لا يستطاع تصديقه • وهاتان الصفتان تضفيان على تلك العبادة شكلا فنيا رائعا ، وتجعلان منها عقيدة انسانية بحتة •